محاضرات في نظرية الأدب/ الأستاذة بركات

السنة الثانية لسانس/ لغة.

المحاضرة الأولى: نظرية الأدب (الماهية والمفهوم)

**تقديم:**

يفترض أغلب النقاد ما افترضه الدكتور جونسون، من أن الأدب العظيم كان عالميا دائما، يعبر عن حقائق عامة في الحياة الإنسانية، وظل النقاد يتحدثون عن تجربة الكاتب الشخصية والخلفية الاجتماعية والتاريخية للعمل الأدبي، وعن الأهمية الإنسانية للأدب العظيم وعبقرية "الخيال والجمال الشاعري فيه"، بصيغة أدق، كان النقد يتحدث عن الأدب دون أن يعكر صفو الصورة التي لدينا عن العالم، أو الصورة التي نملكها عن أنفسنا بوصفنا قراء، ولكن كل ذلك كله بدأ في التغير منذ أواخر الستينات.

**التفريق بين الأدب والدراسة الأدبية:**

يقودنا الحديث عن تأسيس نظرية للأدب إلى ضرورة لابد منها، وهي بحث الفرق بين الأدب والدراسة الأدبية. فالأدب هو نشاط خلاق، فهو فن، بينما تمثل الدراسة الأدبية ضربا من المعرفة أو التحصيل، أي أنها تقارب العلم في أوجه شتى. رغم هذا فقد حاول فريق من النقاد محو الفرق بين هذين المصطلحين، وقال أن فهم الأدب لا يتأتى إلا لمن يعالجه، وأن الفرد لا يمكنه فهم عمل شعري إلا إذا مارس كتابة الشعر. ومهما قيل في هذا الشأن إلا أن دراسة الأدب أمر متميز كليا عن ممارسة الأدب، إذ هي تقوم على مفهومات عقلية يتمثلها الدارس في كيان متناسق، ينبغي أن يكون مقبولا للعقل حتى يصبح معرفة.

يذهب الاتجاه السابق إلى القول أيضا أن الدراسة الأدبية "خلق ثان" وعادة ما يكون النقد الجيد خلاقا أو ترجمة لعمل أدبي إلى عمل أدبي آخر أقل منه قيمة فنية، وهناك من أصحاب النظريات من وصل به الأمر إلى نفي إمكانية دراسة الأدب أصلا، فيزعمون أن الأدب غير قابل للدراسة بالمرة، فنحن لا نملك إلا قراءته والاستمتاع به، وتقديره، وفيما عدا ذلك لا نستطيع إلا جمع شتات المعلومات عنه.

من جهة أخرى.

أدت التساؤلات حول كيفية إيجاد أساس عقلي لمعالجة الفن إلى اقتراحات أبرزها انتهاج أساليب العلوم الطبيعية، ومحاولة تطبيق نظرياتها على الأدب، حيث نقتدي في ذلك بالمثل العلمية التي تقوم على الموضوعية والنزاهة عن الميل الشخصي، واليقين، وتستهدف هذه المحاولة بوجه عام جمع الحقائق المحضة عن العمل الفني. وثمة محاولة أخرى في هذا الصدد، وهي دراسة أصول العمل الفني والأعمال السابقة التي أدت إليه، هذا ما يسمى بالمنهج الوراثي الذي يعتمد على التتابع الزمني أساسا. وإذا طبقت السببية العلمية تطبيقا أكثر دقة فهي تصل بنا إلى تفسير الظواهر الأدبية بتحديد العوامل التي تؤثر في الظروف الاقتصادية والاجتماعية والسياسية. كما نجد أن هناك أيضا المنهج الكمي الذي يستخدم في بعض العلوم كإعداد الإحصائيات والخرائط والرسوم البيانية.

رغم ما قد تناله الدراسة الأدبية من المناهج العلمية، كالطرق الأساسية المتبعة في الدراسة مثل الاستقراء والاستنباط والتحليل والتوفيق والمقارنة، والتي تظل مألوفة في ضروب المعرفة المنهجية، بيد أن الأدب يظل مختلفا عن محتوى علوم الطبيعة والمادة.. لذا ستتطلب دراسته مناهج خاصة ليست هي مناهج العلوم الطبيعية. إلا أنها في الوقت نفسه مناهج عقلية.

طبيعة الأدب:

تمثل طبيعة الأدب أحد أهم الإشكالات التي أرقت النقاد والباحثين فيه، حيث اختلف وجهات النظر حول ماهيته وأثيرت التساؤلات حول إمكانية دراسته من عدمها، ويعود هذا أساسا إلى دخول الأدب في دائرة الفنون وكون وسيلته هي اللغة التي يتقنها كل البشر ويستعلها في كل حياته اليومية باستمرار. من أجل هذا اشتد الخلاف وكثرت الآراء حول طبيعة اللغة المستعملة في الأدب كفن باختلاف أشكاله وأنواعه. انطلاقا من هنا نتساءل عن ماهية الأدب، وما هو الذي يخرج عن نطاق الأدب؟ وما هي طبيعة الأدب؟

عرف الأدب في القرن الرابع عشر بأنه "كل شيء مطبوع"، سواء أكان خاصا بالكتابة الأدبية أو الكتابات الأخرى الخاصة بالطب وعلم الكواكب، وحتى الشعوذة في إنجلترا قديما، تم ربط الأدب هنا بالكتابة والطبع، وهذا ما جعله فضفاضا لأنه يحوي جميع العلوم، فهو لم ينطلق من محتوى الأدب كي يصوغ لنا تعريفا بل انطلق من معيار خارج عن الأدب، فالأدب يطبع بعد صياغته صياغة نهائية ولا يضيف شيئا للأدب أثناء الطبع إلا ما يمكن أن يتعلق بالغلاف والألوان والرسومات عندما تعلق الأمر بقصص الأطفال.

يربط إدوين غرينيلو الأدب بالتاريخ، فيقول أنه كل ما يتصل بتاريخ الحضارة، أي أنه تم ربط قيمة الأدب بما يقدمه من نتائج تفيد العلوم الأخرى، فالتعريف هنا اتخذ منطلقا براغماتيا (نفعيا)، أي أن الأدب سيثمن وتزداد قيمته بقدر ما يقدمه من معلومات يفيد منها التاريخ والعلوم الأخرى. وهذا ما لا يتقبله الأدب باعتباره أولا وقبل كل شيء فنا لغويا.

من الاتجاهات الأخرى في تعريف الأدب حصره على "أمهات الكتب" أي الكتب التي تتميز بالشكل أو التعبير الأدبي مهما كان موضوعها. ويدخل في هذا الاتجاه الفلاسفة والمؤرخون وعلماء الدين والأخلاق والسياسة وحتى علماء الطبيعة. المهم في كل هذا هو أن تتميز كتاباتهم بالذوق الجمالي وتحوز قدرا من الفنية.

عملت جهود الشكلانيين الروس وكذا النقلة النوعية في الدراسات اللسانية التي قادها عالم اللغة فردناند دي سوسير، على بعث رؤيا جديدة في دراسة الأدب؛ حيث تم تحديد مفاهيم جديدة للأدب بعيدة عن كونه وسيلة تخدم مجالات معرفية أخرى، وذلك أنه بنية لغوية أولا وقبل كل شيء. لخص رومان جاكبسون (من رواد المدرسة الشكلية) هذه النظرة في كتابة الشعرية، عن طريق مخططه المشهور عن الدائرة الخطابية، والتي سنوضحها في الشكل الآتي:

سياق

اتصال

مخاطِب..............رسالة....................مخاطب

شفرة(لغة)

سياق

فعملية التوصيل اللغوي تقوم على مخاطب هو مرسل يرسل رسالة إلى المخاطب المستقبل لرسالة، وتستخدم الرسالة شفرة (هي عادة لغة يعرفها كل من المخاطب والمخاطب) وللرسالة سياق أو مشار إليه كما أنها تنتقل عبر اتصال أو وسيط كالكلام الحي أو التلفون أو الكتابة. ويمكن لنا أن نحذف عنصر الاتصال من هذا المخطط عند مناقشة الأدب، لأن العنصر ليست له أهمية خاصة عند منظري الأدب، فهو يحدث عادة بواسطة الكلمة المطبوعة إلا في حالة المسرح.

تتمركز وظيفة الأدب الأساسية حسب جاكبسون في الرسالة، وهي عبارة عن بنية لغوية تكون على قدر من الشعرية والأدبية(ما يجعل من الأدب أدبا)، لذا تكون هدف الكاتب والقارئ قبل كل الوظائف الأخرى، فما يهم هنا هو كيف قال وليس ماذا قال، لأن المعاني مطروحة على الطريق ويبقى على المبدع صياغتها صياغة فنية تبتعد عن الأسلوب الإخباري المباشر الذي يكون هدفه الأساسي هو توصيل المعلومة.

**المحاضرة الثانية: وظيفة الأدب.**

**تقديم:** ترتبط وظيفة الأدب بطبيعته منطقيا، فالطبيعة هي التي تحدد الوظيفة؛ إذ تتماشى كفاءة أي أداة من الأدوات في الاستخدام مع ماهيتها أو كنهها، ولا تتخذ وظيفة ثانوية إلا إذا تلاشت وظيفتها الأولى، فكيان الشيء يقوم على ما يؤديه، فالعمل الفني له التكوين الذي يتلاءم مع وظيفته، بالإضافة إلى مكتسبات الزمن والمواد(المواضيع) التي يجد فيها ملاذ للانبعاث والتكون.

**وظيفة الأدب عبر التاريخ:**

لم يكن يفرق قديما بين الأدب والفلسفة والدين، ومن هنا يمكننا القول أن الأدب لم يكن يحمل وظيفة خاصة به ولا كيانا خاصا به. ومع نهاية القرن التاسع عشر أتت مبادئ الفن للفن، والقائلة بالشعر الخالص. إذا استعرضنا تاريخ علم الجمال أو الشعر بوجه عام، فسندرك أن طبيعة الأدب ووظيفته لم يعتريهما أي تغيير جوهري في خطوطهما العريضة، وذلك بمقارنتهما بالقيم ووجوه النشاط الإنسانية الأخرى.

ويمكن أن نلخص تاريخ علم الجمال في قضية طرفاها المتعة والمنفعة كما سماها هوراس، فالشعر جميل ومفيد. ولعله من الأيسر أن نربط بين المتعة والمنفعة على أساس وظيفة الشعر بدلا من أن نربط بينهما على أساس طبيعته. فالقول بأن الشعر متعة (كأي نوع من أنواع المتعة) يتناقض مع القول بأن الشعر تعليم (كأي كتاب مدرسي). وهذا عندما نربط ثنائية المنفعة والمتعة بطبيعة الشعر لا بوظيفته، كما يكون القول بأن الشعر دعاية أو ينبغي أن يكون كذلك متقابلا مع القول بأن الشعر مجرد إيقاعات وأخيلة، أي أنه زخرف لا يستند إلى عالم الشعور الإنساني. ويصل طرفا القضية إلى ذروة التناقض حين يقال بأن الفن لهو في مقابل القول بأنه عمل... من أجل هذا ينبغي تحديد وظيفة الشعر بطريقة تأخذ المتعة والمنفعة كلتيهما في الاعتبار.

ترادف كلمة "مفيد" في الشعر أنه "ليس مضيعة للوقت" وليس شكلا من تزجية الفراغ، بل هو شيء يستحق الاهتمام الجدي، كما ترادف كلمة "ممتع" أنه لا يدعو إلى الملل أو ليس من قبيل الواجب، بل هو مقصود لذاته.

إن تأدية العمل الأدبي لوظيفة المتعة والمنفعة بنجاح تعني اندماج هذه الثنائية اندماجا كليا لا تلازميا فحسب، وينبغي أن نفهم أن المتعة الأدبية لا تندرج في قائمة طويلة من المتع الممكنة الأخرى، وإنما هي متعة سامية لأنها تأتي عن طريق نشاط سام، وهو التأمل المنزه عن الغرض، كذلك الحديث عن المنفعة الأدبية، فالجدية في الأدب تختلف عن جدية الواجب الذي لا مناص من أدائه، فهي جدية جمالية عقلية تعمل بعمق النظرة. فمن الخطأ أن تكون عظمة العمل الأدبي نابعة من المعلومات التاريخية التي يحتويها أو الدرس الأخلاقي الذي يتضمنه.

**الأدب، وظيفة واحدة أم وظائف متعددة:**

يستعرض "بواس" في كتابه "أوليات النقد" عدة اهتمامات للأدب وما يقابلها من أنماط النقد، وينهي "ت. س. إليوت" كتابه "مهمة الشعر ومهمة النقد" مؤكدا في أسى أو على الأقل في ضجر، أن هناك أنواعا من الشعر مختلفة، ومشيرا إلى الأغراض المختلفة التي تحققها أنواع الشعر في الأوقات المتفاوتة. ولكن كل هذه استثناءات، فإذا أخذنا الأدب أو الشعر على محمل الجد، فإن ذلك يعني أن ننوط به مهمة خاصة به، يكتب إليوت معلقا على قول أرنولد -أن الشعر يمكن أن يستعاض به عن الدين أو الفلسفة-، ما يلي:" لا شيء في هذا العالم أو في الآخرة يمكن أن يكون بديلا لشيء آخر"". وهذا يعني أنه لا يوجد نظير حقيقي لأي نمط حقيقي للقيمة. يمكن للأدب من الناحية العملية أن يقوم مقام عدة أشياء، كالرحلات والاغتراب في البلاد الأجنبية.. كما يمكن للمؤرخ استخدامه كوثيقة اجتماعية.

تؤكد الاتجاهات الحديثة نفع الشعر وجديته على أساس أن الشعر يحمل معرفة (نوعا خاصا من المعرفة). إن الشعر من صور المعرفة ويكاد أرسطو يؤدي مثل هذا المعنى في مقولته المشهورة أن "الشعر أكثر فلسفة من التاريخ" لأن التاريخ يحكي أشياء قد وقعت، بينما الشعر يتناول ما يحتمل الوقوع، جامعا بين صفة العمومية والاحتمال. هناك من يقول بأن الأدب يهدينا إلى معرفة التفاصيل التي ليست من شأن العلم أو الفلسفة، هذا ما يؤكده أصحاب النظريات الحديثة؛ حيث يؤكدون اهتمام الشعر بالجزئيات.

يقدم الأدب قيمة معرفية سيكولوجية في الدراما والقصة، ومن مألوف القول "أنه في استطاعة القصاص أن يعلمنا عن الطبيعة البشرية أكثر مما نتعلمه من علماء النفس، يرى إم فوستر في كتابه معالم القصة، أن القصة تقدم أعظم الخدمات، إذ تكشف الحياة الباطنية للشخوص، ولا يخفى علينا أن القصص العظيمة كانت ولا تزال مصادر لعلماء النفس.

يذهب بعض الباحثين للقول أن الشعر بصيرة، يعني أن مهمة الفنان هي تذكيرنا بما لم نعد نراه، أو أن يلفت نظرنا إلى ما لم نره وإن كان موجودا طول الوقت، يشير وايلد في كتابه أهداف، إلى اكتشاف ويسلر لقيمة جمالية في الضباب وإلى اكتشاف رسامي مدرسة ما قبل رافييل للجمال في أنماط من النساء لم يدخلن في عداد الجميلات من قبل.